مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 17، العدد 01، 15 جانفي 2021، ص ص716-724

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ثورة التيجانية في بايليك الغرب الجزائر إبّان القرن التاسع عشر

–دراسة تاريخية أنثروبولوجية–

The revolution of tijania in the baylikwest in nineteenth century Anthropological historical study

أ.د. خالد بلعربي [1] *

[1] جامعة –تلمسان– مخبر جمع وتوثيق الشعر الشعبي الجزائري من العهد العثماني حتى القرن العشرين

belarbi.tlemcen@yahoo.fr

أ.د. شعيب مقتونيف [2]

[2] جامعة –تلمسان–الجزائر–

meg_chaib@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/02/01 تاريخ القبول: 2020/02/23

ملخص:

تميزت السنوات الأخيرة من الحكم العثماني لبايليك الغرب الجزائري باندلاع أخطر ثورة شعبية تزعمتها الطريقة التيجانية و قد تزامن لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي و الاجتماعي لحكومة الدايات , لهذا كان تهديدها خطيرا مما جعل رد فعل العثمانيين عنيفا وقاسيا , خاصة و أن الثوار لم يتوانوا في مهاجمة الحاميات العثمانية في نقاط مختلفة بجرأة و حماس . و في مقالنا هذا سوف نكتفي بسرد أحداث هذه الطريقة في بايليك الغرب الجزائري و ما رافقها من ملابسات وقبل الغوص في الموضوع علينا بالتطرق أولا لخلفيات هذه الثورة و أسبابها.

كلمات مفتاحية: الثورة، بايلك الغرب، التيجانية، الغرب الجزائري، العثمانيين.

Abstract:

The last years of the Ottoman rule of Bailek were marked by the Algerian West, with the outbreak of the most dangerous popular revolution led by the Tijaniyya method, and the flames of this revolution coincided with the aggravation of the political, economic, and social situation of the Dayat government, so its threat was serious, which made the reaction of the Ottomans violent and cruel, especially as the revolutionaries did not hesitate. Attacking Ottoman garrisons at

* **المؤلف المرسل:** خالد بلعربي، **الايميل:** belarbi.tlemcen@yahoo.fr

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

various points boldly and enthusiastically. In our article, we will suffice to list the events of this method in Bailek, the Algerian West, and the accompanying circumstances. Before diving into the matter, we must first address the backgrounds and causes of this revolution.
Keywords: tijaniyya; ottoman; revolution; westalgerian.

مقدمة:

تميزت السنوات الأخيرة من الحكم العثماني لبايليك الغرب الجزائري باندلاع أخطر ثورة شعبية تزعمتها الطريقة التيجانية وقد تزامن لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لحكومة الدايات, لهذا كان تهديدها خطيرا مما جعل رد فعل العثمانيين عنيفا وقاسيا , خاصة وأن الثوار لم يتوانوا في مهاجمة الحاميات العثمانية في نقاط مختلفة بجرأة و حماس . و في مقالنا هذا سوف نكتفي بسرد أحداث هذه الطريقة في بايليك الغرب الجزائري و ما رافقها من ملابسات وقبل الغوص في الموضوع علينا بالتطرق أولا لخلفيات هذه الثورة و أسبابها.

أولا: فساد النظام السياسي :

كان النظام العسكري سمة ارتبطت بالإمبراطورية العثمانية ولازمتها طيلة وجودها, وعليه فلا غزو أن تكون القوة العسكرية أساس وطبيعة الحكم العثماني بالجزائر فعلى الرغم من أن العثمانيين كان بإمكانهم استغلال الخطوة التي كانوا يتمتعون بها لدى الأوساط الشعبية في بداية مجيئهم إلى الجزائر لكسبها إلى جانبهم, إلا أن شيئا من هذا القبيل لم يحصل بل اعتبروا أنفسهم دائما أسيادا فارتكبوا الفضائح و مارسوا الظلم و القهر تجاه الرعايا و الأعيان(عبد الجليل التميمي، 1980، ص91) ومن الشواهد الدالة على ذلك ما أورده المؤرخ محمد بن يوسف الزياني الذي رغم كونه من المؤرخين المقربين للسلطة العثمانية إلا أنه يقول عنهم "...واعلم أن الأتراك لما تعهد لهم الملك بالجزائر كثر ظلمهم وفسادهم بحيث لا يليق أن يذكر ما كانوا منه من الظلم و المناكر وتواتر ذلك على ألسنة بغاية التواتر فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم و سألت الناس ، أن يزيل عنها ما حل بظلمهم ..."(محمد بن يوسف الزياني، 1979، ص59) وقد بلغت درجة فساد الحكم العثماني مداها في عهد حكومة الدايات (1671-1830) فإلى جانب تدني المستوى الاجتماعي و الثقافي للدايات فإنهم ساهموا في تبذير الأموال العامة كما لم يبذلوا أي جهد لتطوير علاقتهم مع السكان المحليين نحو الأحسن و لعل السبب

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وراء ذلك هو أنه لم تكن تربطهم بالبلد أية روابط من شأنها أن تجعلهم حريصين على سمعة النيابة سوى الجانب المالي (غالي الغربي، 1997، ص56).

لقد عمل العثمانيون خلال تواجدهم بالجزائر على إبقاء الأهالي بعيدين عن أية مساهمة جدية في أمور الحكم و هو ما دفعهم إلى ارتكاب المظالم اتجاههم فالنظام العثماني كان منعزلا و منطويا على نفسه بعيدا عن هموم الناس و آلامهم فقد كان نظاما سياسيا جمهوريا عسكريا منغلق (أبو القاسم سعد الله، 1992، ج1، ص138).

و من جهة أخرى ، فأن انتشار الرشوة ، و تدخل الجيش في الحكم ، وبروز الخطر الأجنبي المتمثل في تكالب القوى الأوروبية و محاولتها الرامية تصفية ممتلكات الدولة العثمانية ، أكد للجزائرين أن العثمانيين عاجزين عن القيام بالمهمة الأساسية التي تبرر وجودهم في الجزائر والمتمثلة في الدفاع عن الشعب الجزائري و حمايته من الغزو الخارجي ، " إن الأتراك لم يكونوا أهلا للحكم في أواخر عهدهم ...وحكموا البلاد مدة ثلاثين سنة ، لم تكن فيها سياستهم رشيدة ولا حكمهم فيها عادلا على العموم ، فكان من الطبيعي أن يكثر الناقمون و الثائرون عليهم (مسلم بن عبد القادر، ص55).

لم يتمكن العثمانيون من حكم الجزائرين و الدفاع عنهم بل عاملوهم معاملة المنتصر المنهزم (بونقاب مختار، 2002، ص73) لذلك تخلى المجتمع الجزائري عن الحكم التركي كسلطة رسمية و لجأ للطرق الصوفية كسلطة روحية غير رسمية ، فتبنت آلامه و آماله و تولت مهمة الدفاع عنه عن طريق الثورة ضد العثمانيين و هو ما وقع مع الطريقة التيجانية .

ثانيا: السياسة الضريبية

إن تحول طرق التجارة العالمية ، و فقدان الحكومة العثمانية لمصادر تمويل خارجية ، جعلها ترتبط أكثر بالأرض ، أي الموارد الطبيعية الداخلية ، مما أثر سلبا على طبقة الفلاحين الممثلين أنذلك أغلبية المجتمع الجزائري الذين عانوا من ثقل الضرائب المفروضة عليهم لتغطية العجز الناتج عن ضعف القرصنة ، إن الحكومة العثمانية بالجزائر تحولت إلى جهاز لجمع الضرائب دون السعي إلى تنمية مرافق الدولة الاقتصادية ، فكل ما كانت تنتجه النيابة من موارد يدفع بشكل مرتبات و جرايات للمؤسسة العسكرية و موظفيها (ناصر الدين سعيدوني، 1979، ص50) و كثيرا ما كانت هذه الحكومة تجهز الحملات العسكرية في عملية جمع الضرائب لتأديب الثوار و إرغامهم على دفع ما فرض عليهم ، و هو

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أمر غير عادل لأن القائمون على ذلك النظام لم يراعوا طبيعة الإنتاج و لا وضعية الفلاحين وحالتهم، فهم لا يأخذون بعين الاعتبار إلا نوعية الملكية و متطلبات الخزينة و حاجة الموظفين ، و هذا ما زاد في شقاء وبؤس الفلاحيين (ناصر الدين سعيدوني، 1984، ج4، ص33)

و مما زاد في تأزم الأوضاع انتشار الأمراض و الأوبئة الذي حدث سنة 1242هـ/1826م(مسلم بن عبد القادر، ص31) كل ذلك جعل السكان عاجزين عن دفع ما يفرض عليهم من ضرائب هذا من جهة ، و من جهة أخرى فأن العثمانيين لم يسعوا لتنمية المجال الاقتصادي عن طريق الاستثمارات ، فأموال الضرائب كانت تدفع كمرتبات للجيش .

و كانت نتيجة هذه السياسة المالية إحساس الفئات الاجتماعية المحرومة و على و رأسها الفلاحون بأن مجهوداتهم كانت موجهة لرفاهية الطبقة التركية دون التمتع بأية حقوق ، لذا يمكن اعتبار هذه الثورة كبقية الثورات التي اندلعت ضد الحكم العثماني في الجزائر عبارة عن رد فعل طبيعي من جانب السكان على التصرفات الجائرة الناتجة عن الاجراءات المالية التي مارسها الدايات .

ثالثا: التعريف بزعيم هذه الثورة

يعتبر ابن الشيخ أحمد التيجاني سي محمد الكبير هو من قاد هذه الثورة ضد الحكم العثماني في بايليك الغرب الجزائري ، وقد تعلم مبادئ الطريقة التيجانية في زاوية عين ماضي التي تنتسب إلى مدينة عين ماضي جنوب جبال عمور بالجزائر و هي تمثل الموطن الأصلي للتيجانية ، و المهد الأول لشيوخها ، وقد ظلت زاوية عن ماضي محافظة على مكانتها الروحية حتى بعد وفاة الشيخ أحمد التيجاني سنة 1231هـ/1815م.

لقي سي محمد الكبير التأييد الواسع من جميع القبائل الصحراوية ، و قبائل حشم غريس فصاروا كما يقول أحدهم من "أنصاره "(lourisrim, p421) لقد كانت فكرة إعلان الثورة على العثمانيين تخامر محمد الكبير منذ رجوعه من الحج إلى بلاده (أحمد الشريف الزهار، ص159)، لقد كان كان الشيخ سي محمد الكبير على علم بالمضايقات التي كان يمارسها رجال الحكومة العثمانية على تحركات أفراد الطريقة التيجانية ، و على رأسهم أبوه الشيخ أحمد التيجاني الذي ضاق كثيرا بهذه المضايقات (aliounetraoré, 1983, p36) كما كان على علم بالضرائب الى فرضها العثمانيين على زاوية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

عين ماضي للحد من نشاطها و محاصرتها من قبل بايات وهران وتيطري لذلك أعلن محمد الكبير الثورة على الحكم العثماني في بايليك الغرب الجزائري كرد فعل لهذه الاستفزازات.

رابعا: اندلاع الثورة

لقد أدى استمرار هجمات الحاميات العسكرية العثمانية ضد زاوية عين ماضي –مقر الطريقة التيجانية و فرض الحصار عليها سنة 1820 ، و إرغامها على دفع ضريبة سنوية مقابل تخليه عنها ، هي كل عوامل أدت بسي محمد الكبير ابن الشيخ أحمد التيجاني أن يعلن الثورة على الأتراك وملاحقتهم أينما كانوا و ذلك في سنة 1242 هـ/1826م (محمد علوان، 1327، ص8) لينتقل التيجانيون بذلك من حالة الدفاع التي كانوا عليها إلى حالة الهجوم .

قام سي محمد الكبير بتجهيز جيش قوامه 600 مقاتل من رجال عين ماضي (مسلم بن عبد القادر، ص31) و أصحاب الزاوية التيجانية و معهم جمع غفير من عرب الصحراء يضم قبيلة لرباع و سكان القصور و عشائر أولاد نايل ، و كذلك قبيلة الحشم (هاشم) من بلدة غريس ، فسار نحو معسكر سنة 1826م ، و كان الهدف هو الإستيلاء على وهران عاصمة بايليك الغرب الجزائري نفسها (arnaud, p473)غير أن قبائل زغدو التي تقطن بالقرب من الفقيق قطعت طريقهم في سوارة بالقرب من الشط (louis rinn, p423)فبددت شملهم و أصيب سي محمد الكبير بجروح بليغة نقل على إثرها إلى عين ماضي أين أمضى شهرين بين الحياة و الموت.(arnaud,p473)

في السنة الموالية، 1827 سار التيجانيون للمرة الثانية نحو وهران بقيادة سي محمد الكبير فبلغوا أسوار المدينة ،فدارت بينهم و بين الأتراك اشتباكات حامية في نقاط مختلفة ثم عاد بعد ذلك سي محمد الكبير إلى معسكر فدخلها ،ثم خرج منها ، ليلتقي الطرفان مجددا بمنطقة "عواجة " من أرض غريس حيث قامت أشرس معركة بين الجيش الإنكشاري تعاضده قبائل المخزن و الثوار، تمكن سي محمد الكبير في هذه المعركة أن يخضع بعض المناطق التي كانت تحت سيادة الحكم العثماني(أحمد الشريف الزهار، ص159) ظل سي محمد الكبير ماكثا في أرض غريس من معسكر، محاولا أن يجعلها مقر الإقامة وقاعدة حربية لجيشه و منها راح يوجه نداءاته إلى القبائل لتعلن الجهاد و الحرب على العثمانيين وأدواتهم من قبائل المخزن ، فالأتراك ظلوا في نظر سي محمد الكبير التيجاني " أشد استبدادا و كان حكمهم كله طغيانا (مؤلف مجهول، ص88).

أمام هذا الوضع لم يجد باي وهران بدا من أن يقوم ببعث المال لكبار قبيلة الحشم كي يتخلوا عن دعم و مساندة ثورة سي محمد الكبير، و قد وجد في ذلك تجاوبا كبيرا منهم ، إذ تخلت عنه الحشم ولم يبق معه إلا نحو الثلاث مائة من الأعراب ، و على الرغم من ذلك فقد استطاع الصمود و الوقوف ضد الأتراك لوقت طويل قبل أن ينهزم في نهاية المطاف ، يقول الحاج أحمد الزهار " فلما وصل (سي محمد الكبير) إلى غريس و أخذ يقاتل أهل معسكر ، و استولى على بعض الجهات بعث الباي المال لكبراء الحشم لكي يتخلوا عنه ، وخرج إليه من وهران بالقوم و أمر المحلة بأن تردفه فأصبح الباي مقاتلا ، و فر الحشم عن التيجاني ، و فر الكثير من جيوشه التي أتت معه ولم يبق معه إلا نحو الثلاثمائة من أعراب زكور ، قاتلوا قتالا شديدا إلى أن قتلوا عن آخرهم "(أحمد الشريف الزهار، صص159-160)، و يذكر الزهار كذلك أن رأس التيجاني سي محمد الكبير قد أرسلت إلى الجزائر حيث صلبت قبالة الباب الجديد و" لكثرة ما كانوا يخافونه (الأتراك) بعثوا السلطان محمود يبشرونه بقتله و بعثوا له سيفه والحجب (أحمد الشريف الزهار، ص160)التي كانت معه ".

خامسا: أسباب فشل الثورة

تسببت عده عوامل في فشل ثورة سي محمد الكبير التيجاني ، ومن هذه العوامل عدم تمكن الطريقة التيجانية من إيجاد أنصار لها بالغرب الجزائري ، لكون أغلب العشائر الكبيرة و القبائل القوية كانت تدين بالولاء لشيوخها و زعمائها الذين كانوا يستمدون نفوذهم من رجال البابليك مقابل الإمتيازات التي كانوا يحصلون عليها ، كما أن أغلب سكان الأرياف بايليك الغرب كانوا ينتمون للطريقة الدرقاوية التي استطاعت أن تتغلغل فيه ، و أن تكسب ولاء أغلب قبائله (ناصر الدين سعيدوني، 2000، ص329) و بالتالي فلم يتمكن سي محمد الكبير من إيجاد أتباع له من الطريقة يساعدونه في حركته ضد الباي حسن نظرا للمنافسة التي كانت قائمة بين الطريقة التيجانية و الطريقة الدرقاوية(غالي الغربي، ص64) أضف إلى ذلك فإن الباي حسن استعمل الدهاء السياسي للقضاء على هذه الثورة ، فعمل على التقرب من قبيلة الحشم ذات الصلة بالثورة و التي كانت تتمتع بنفوذ في المنطقة عن طريق شراء كبراء رجال هذه القبيلة بالمال كي يتخلوا عن مساندة الثورة و دعمها (أحمد الشريف الزهار، ص159) علما بأن قبيلة الحشم كانت من ألد أعداء الأتراك، و لعل الدافع التي دفعها إلى الارتماء في أحضان الأتراك هو التخوف من نفوذ الطريقة التيجانية في المنطقة وكانت النتيجة أن سي محمد الكبير

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التيجاني ظل يقاتل الأتراك في المعركة بعدد قليل من الرجال و هو ما أدى في نهاية المطاف إلى القضاء عليه و على ثورته (kaddachmahfoud, 2003, p144).

ولعل الخطأ الجسيم الذي ارتكبه سي محمد الكبير التيجاني هو عدم قدرته على معاودة الهجوم على وهران على حين غرة ، حيث أنه بقي لمدة سنة تقريبا وهو في " عين ماضي " حين أعاد الهجوم ثانية على العثمانيين في وهران ، و بالتالي جعل الباب مفتوحا للباي حسن كي ينظم قواته العسكرية لمهاجمة الثائرين من رجال الطريقة التيجانية (فيلالي مختار الطاهر، ص49) و يظهر أن الملل و السأم قد تمكنا من معنويات الثوار خاصة بعدما لاحظوا تحول قبيلة الحشم لمساندة الأتراك .إضافة إلى ذلك فإن ثورة سي محمد الكبير برأي المؤرخين لم تكن منظمة تنظيما يسمح لها بحسم المعركة مع الأتراك (cornvin, 1964, p211).

سادسا: نتائج الثورة

لقد أسفرت هذه الثورة عن نتائج خطيرة في التاريخ الجزائري و لعل أهمها أنها أضعفت سلطة بايليك الغرب الجزائري الذي كان يرأسه باي طاعن في السن فقد كان الباي حسن شيخا قد مل الحكم ، ولذلك لم يكن يطمح إلا في حياة هادئة كما يقول حمدان خوجة (حمدان خوجة، 1982، ص219) كما أنه لم يكن محبوبا ، لهذا لم يكن مؤهلا لمواجهة الفرنسيين "عند علم العرب بأن الفرنسيين دخلوا إلى الجزائر ، رفضوا أن يواصلوا الاعتراف بسلطة الباي و شقوا عصا الطاعة ، و زيادة على ذلك نهبوا المزارع التابعة لباي وهران ، و استولوا على ماشيته كالدواب و الخيل إلخ ...." (حمدان خوجة، 1982، ص220) كل هذا جعل الباي حسن يعترف بالسلطة الفرنسية على الجزائر (مسلم بن عبد القادر،ص32) كما نتج عن هذه الثورة اضطراب الأحوال الاقتصادية ، فأهملت الفلاحة و اختفت الأقوات ، و مما زاد في خطورة الوضع حدوث القحط في الغرب الجزائري الذي صادف ولاية الباي حسن (1816-1830) و هذا ما أدى إلى ارتفاع الأسعار في المدن و الأرياف على حد سواء ، وقد وصف لنا مسلم بن عبد القادر هذه الوضعية الكارثية بقوله :"و في هذه السنة 1242هـ/1826م حدث قحط كبير وغلاء عظيم ، صار معه الباشا يفرق الأرغفة على الناس ، فسمي العام لذلك عام الباشا ، و كان الناس يقولون قبل ذلك :"سيأتي الباي حسن ، يأكل الرتعة ويريد الرسن ، أي يأكل الرعية و يحافظ على العمال ."(حمدان خوجة، 1982، ص31) و قد تسببت هذه الثورة كذلك في إقتناع سكان الأرياف

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

بإمكانية الثورة على سلطة البايليك ورفض الضرائب و المطالب الخزينة ، و عدم الرضوخ للأحكام الجائرة، و لا يمكن تفسير ذلك إلا بالحقد و العداء الذي خلقته تناقضات النظام العثماني في نفوس السكان تجاه الطبقة التركية المتسلطة التي ذاقت شتى أنواع الاضطهاد و القهر و الاستغلال بفرض مختلف الضرائب وتجريد الحملات العسكرية على الريف الجزائري ، لهذا وجد السكان في شخص " سي محمد الكبير التيجاني و أمثاله من الذين تزعموا ثورات القرن التاسع عشر متنفسا لهم يشكون إليهم ما لحقهم من تعسف و استبداد هذه الطبقة التي اهتمت بالركض وراء السلطة وجمع الأموال (غالي الغربي، ص65).

خاتمة:

هذا و في ختام هذا البحث يجدر بنا أن نسجل أن ثورة سي محمد الكبير تعتبر بحق ثورة شعبية على المظالم و القهر الذي كانت تعاني منه الأرياف الجزائرية أواخر العهد العثماني، و ذلك من جراء السياسة المالية الثقيلة للبايليك و التصرفات الجائرة لبعض البايات ، و لعلنا لا نكون مبالغين إذ قلنا أن ثورة مثل التي تزعمها سي محمد الكبير التيجاني كانت متوقعة ضد بايليك الغرب الجزائري.

قائمة المصادر والمراجع:

1-التميمي عبد الجليل، 1980، العرب و الأتراك في إطار الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية تونس العدد 17-18، 1980.

2-الزياني محمد بن يوسف، 1979، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران تحقيق و تقديم الشيخ المهدي البوعبدلي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر .

3-أبو القاسم سعد الله، 1992، الحركة الوطنية الجزائرية ج1 دار الغرب الإسلامي لبنان.

4-بونقاب مختار، 2002، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر ، رسالة ماجستر في التاريخ (مرقونة) قسم التاريخ جامعة وهران.

5-حمدان خوجة، 1982، المرآة، تعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

6-غالي الغربي، 1997، ثورة ابن الشريف الدرقاوي في الغرب الجزائري إبان القرن التاسع عشر مجلة الدراسات التاريخية العدد 10 الجزائر .

7-محمد علوان، 1327هـ، النفحة القدسية في السيرة الأحمدية التيجانية، ط1، مطبعة كردستان، مصر.

8-مؤلف مجهول، إعلان الحجة على أعداء الطريقة التيجانية ، المطبعة الإسلامية، الأزهر، مصر.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

9-ناصر الدين سعيدوني، 1979، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830) الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر.

10-ناصر الدين سعيدوني، 2000، ورقات جزائرية، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

11-ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، 1984، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني ج4 المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر.

12-Alioune Traoré , 1983, cheilhhamahoullah de foi et résistant, paris.

13-Kaddache Mahfoud , 2003, l'algérie durant la periode ottoman. Opu.alger.

Cornevin R, 1964, histoire de l'afrique des origines à nos jours . ed . payot paris.